الشيطان فى بيت الموصلى !

قال المغنى إبراهيم الموصلى[1]: استأذنت هارون الرشيد[2] فى أن يهب لى فى كل أسبوع يوما أخلو فيه مع جوارى، فأذن لى فى يوم الأحد وقال: هو يوم استثقله.

فلما كان فى بعض الآحاد أتيت الدار فدخلت، وأمرت الحجاب ألا يأذنوا لأحد على، وأغلقت الأبواب.

فما هم إلا أن جلست حتى دخل علىّ شيخ حسن السمت والهيئة، على رأسه قلنسوة صغيرة، وفى رجله خفان أحمران، وفى يده عصا مقمعة (مطعمة) بفضة.

فلما رأيته امتلأت غيظا وقلت: ألم آمر الحجاب ألا يأذنوا لأحد؟ ثم فكرت وقلت: لعلهم علموا من الشيخ ظرفا وهيئة، فأحبوا أن يؤنسونى به فى هذا اليوم.

وسلم الشيخ فلما أمرته بالجلوس جلس وقال: يا إبراهيم ألا تغنينى صوتا؟ فامتلأت عليه غيظا، ولم أجد إلى رده سبيلا لأنه فى منزلى، وحملته منه على سوء أدب العامة. فأخذت العود وضربت وغنيت ووضعت العود. فقال لى: لم قطعت هزارك (لحنك)؟ فزادنى غيظا، وقلت: لا يسيدنى ولا يكنينى (لا يمدحنى) ولا يقول أحسنت، فأخذت العود فغنيت الثانية. فقال لى: أحسنت، فكدت والله أشق ثيابى وغنيت تمام الهزار، فقال: أحسنت يا سيدى، ثم قال: ناولنى العود.

فوالله لقد أخذه فوضعه فى حجره ثم جسه من غير أن يكون ضرب بأنملة. فوالله لقد خلت زوال نعمتى فى جسه (مما يدل على مهارته وحنكته الشديدة فى العود).

---

(١) هو إبراهيم بن ميسون أحد أشهر الموسيقيين فى العصر العباسى، فارسى الأصل ولد بالكوفة عام ١٢٥ هـ/٧٤٢م. لقب بالموصلى لإقامته بالموصل، شغف بالغناء والعزف منذ الصغر وتتلمذ على يد سياط الفارسى حتى أصبح من أشهر وأمهر المغنيين والملحنيين فى زمانه. يقال أنه لحن أكثر من تسعمائة لحن. ورث موهبته ابنه إسحاق الموصلى، توفى ببغداد عام ١٨٨هـ/٨٠٤م.

(٢) هو هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس، خامس خلفاء بنى العباس (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م)، اشتهر بالغزو والجهاد وحبه للعلم والعلماء فكان يحج عاما ويغزو عاما، يعتبر عصره هو العصر الذهبى للخلافة الإسلامية من كافة الجوانب، حكم الرشيد أكبر دولة فى العالم فى سن الخامسة والعشرين، فكانت تدين له الأقطار من وسط آسيا حتى المحيط الأطلسى، من أعظم أعماله العلمية إنشاء بيت الحكمة ببغداد الذى جعل عاصمة الخلافة قبلة للعلم والعلماء من كافة الأنحاء، توفى عام ١٩٣هـ.

ثم ضرب وغنى:

وقـد زعـموا أن المحـب إذا دنــا يمـل، وأن النأى يسلى من الوجـد
بكـل تـداوينـا فلـم يشـف مـا بنـا على أن قرب الدار خير من البعـد

فـوالله لقد خلت كل شـــيء في الحضـــرة يتغنى معه حتى الأبواب والســتور والنمارق والوسائد وقميصى الذى على بدنى. ثم قال:

يا أبا إســحاق هذا الغناء الماخورى، تعلمــه وعلمه جواريك، ثم وضع العود من حجره وقام إلى الدار، فلم أره، فدفعت أبواب الحرم فإذا هى مغلقة. فسألت الحجاب عن الرجل، فقالوا لى: لم يدخل عليك أحد حتى يخرج. فأمرت بدابتى فأســرجت وركبت من فورى إلى دار الخليفة، واستأذنت. فلما رآنى قال:

ألم تنصــرف آنفــا على نية المقام فــى منزلك والخلوة بأهلك؟ قلت: يا ســيدى جئت بغريبة. وقصصت عليه القصة، فضحك الرشــيد حتى رفع الوســائد برجليه وقال لى: كان نديمك اليوم إبليس يا أبا إسحاق، ووددت أنه لو متعنا بنفسه كما متعك.

من كتاب (جمع الجواهر فى الملح والنوادر) للحصرى.

❑❑❑

من حكمة معاوية

كان لعبد الله بن الزبير[1] أرض متاخمة لأرض معاوية بن أبى سفيان[2]، قد جعل فيها عبيدا من الزنوج يعمرونها، فدخلوا على أرض عبد الله، فكتب إلى معاوية: أما بعد يا معاوية، فامنع عبدانك من الدخول فى أراضىّ وإلا كان لى ولك شأن.

فلما وقف معاوية على الكتاب - وكان إذ ذاك أمير المؤمنين - دفعه إلى ابنه يزيد[3] فلما قرأه قال له: يا بنى ما ترى ؟ قال: أرى أن تنفذ إليه جيشا أوله عنده وآخره عندك، يأتونك برأسه. قال: أوخير من ذلك؟ إلىّ بدواة وقرطاس، وكتب: وقفت على كتاب ابن حوارى رسول الله، وساءنى ما ساءه، والدنيا بأسرها عندى هينة فى جنب رضاه، وقد كتبت له على نفسى صكا بالأرض والعبدان، وأشهدت علىّ فيه فليستضفها (يضيفها) مع عبدانه على أرضه وعبيده والسلام.

فلما وقف عبد الله على كتاب معاوية كتب إليه: وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاه، فلا عدم الرأى الذى أحله من قريش هذا المحل (أى أجلسه فى مقام الخلافة).

(١) هو عبد الله بن الزبير بن العوام، ابن أسماء بنت أبى بكر الصديق، والزبير بن العوام حوارى رسول الله، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، هو أول مولود يولد للمهاجرين فى المدينة عام ٢هـ، يعد من صغار الصحابة ومن رواة الحديث، كان عالما زاهدا مجاهدا، شهد معركة اليرموك وفتح إفريقية والمغرب وغزو القسطنطينية ويوم الجمل مع خالته أم المؤمنين عائشة، بويع بالخلافة عام ٦٤هـ بعد انشقاقه على الأمويين عقب مقتل الحسين بن على، فدانت له الحجاز ومصر واليمن والعراق وخراسان وأكثر الشام، لما دانت الخلافة فى دمشق لعبد الملك بن مروان بعث إليه بجيش بقيادة الحجاج بن يوسف الذى اقتحم المسجد الحرام بمكة وقتل ابن الزبير عام ٧٣هـ، بموته دانت البلدان الإسلامية كلها للحكم الأموى.

(٢) هو معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية، أول خلفاء بنى أمية (٤٠-٦٠هـ/٦٦١-٦٨٠م)، أسلم يوم فتح مكة فهو من الطلقاء وكان عمره حينئذ ٢٣ سنة، روى أحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم وكان من كتاب وحيه، حارب المرتدين فى معركة اليمامة فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه، اشترك فى فتح الشام تحت قيادة أخيه يزيد بن أبى سفيان، تولى ولاية الأردن فى خلافة عمر رضى الله عنه ثم ولاية دمشق وما حولها، جمع له الخليفة عثمان رضى الله عنه ولاية الشام كلها، تولى الخلافة بعد الفتنة الكبرى بينه وبين علىّ رضى الله عنه عام ٤٠ للهجرة، كان أول من أنشأ الأسطول الإسلامى ففتح به قبرص ورودس وصقلية وغيرها من الجزر، اتسعت الدولة فى عهده اتساعا كبيرا، فوصلت شرقا إلى بلاد ما وراء النهر، وغربا حتى بلاد المغرب، توفى عام ٦٠ للهجرة.

(٣) يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، ثانى خلفاء بنى أمية (٦٠-٦٤هـ/٦٨٠-٦٨٣م)، هو أول من أجبر المسلمون على مبايعته تحت التهديد بعد وفاة أبيه عام ٦٠هـ، عرف عنه مخالفته لتعاليم الإسلام وعدم مراعاته لحرمة المسلمين، خرج عليه الحسين بن علىّ رضى الله عنه فكانت واقعة كربلاء بالعراق عام ٦١ هـ حيث قتل الحسين ورهط من آل البيت، فى سنوات حكمه حوصرت القسطنطينية عاصمة البيزنطيين حصارا شديدا استشهد خلاله جمع من الصحابة على رأسهم أبو أيوب الأنصارى، توفى عام ٦٤هـ

والســلام. فلمــا وقف معاوية على كتاب عبــد الله، رماه إلى ابنه يزيد وقال له: يا بنى إذا بليت بمثل هذا الداء، فدواه بمثل هذا الدواء.

من كتاب (المستجاد من فعلات الأجواد) للتنوخى.

□□□

عمر بن عبد العزيز وفحول الشعراء

لما استخلف عمر بن عبد العزيز[1] وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد إلى الخلفاء قبله، فأقاموا ببابه أياما لا يأذن لهم بالدخول. حتى قدم عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود على عمر بن عبد العزيز، وعليه عمامة قد أرخى طرفيها، وكانت له منه مكانة فصاح به جرير:

يا أيها الرجل المرخى عمامته ... هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه ... أني لدى الباب كالمصفود في قرن
وحشى المكانة من أهلي ومن ولدي ... نائي المحلة عن داري وعن وطني

قال نعم أبا حزرة ونعمى عين، فلما دخل على عمر، قال يا أمير المؤمنين إن الشعراء ببابك وأقوالهم باقية وسنانهم مسنونة. قال: يا عون: مالي وللشعراء. قال: يا أمير المؤمنين إن النبي صلى الله عليه وسلم قد مدح وأعطى وفيه أسوة لكل مسلم. قال: ومن مدحه؟ قلت: عباس بن مرداس، فكساه حلة قطع بها لسانة. قال: وتروى قوله ؟ قلت: نعم:

رأيتك يا خير البرية كلها ... نشرت كتابا جاء بالحق معلما
ونورت بالبرهان أمرا مدمسا ... وأطفأت بالبرهان نارا مضرما
فمن مبلغ عني النبي محمدا ... وكل امرئ يجزى بما قد تكلما
تعالى علوا فوق عرش إلهنا ... وكان مكان الله أعلى وأعظما

قال: صدقت، فمن بالباب منهم؟ قلت ابن عمك عمر بن أبي ربيعة[2]، قال: لا قرب الله قرابته ولا حيا وجهه، أليس هو القائل:

---

(١) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، ثامن الخلفاء الأمويين (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م)، كانت أمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، يعد من التابعين حيث روى الحديث عن بعض الصحابة وكبار التابعين بالمدينة، تزوج فاطمة بنت عبد الملك بن مروان، تولى إمارة المدينة المنورة في عهد الوليد بن عبد الملك عام ٨٧هـ، صار واليا على الحجاز كله عام ٩١هـ، عينه سليمان بن عبد الملك وزيرا له، اشتهر بعدله حتى شبهه الناس بجده الفاروق عمر، قال عنه سفيان الثوري: الخلفاء خمسة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز. كان يصلي بالناس إماما فقال عنه أنس بن مالك رضي الله عنه: ما رأيت أحدا أشبه بالنبي في صلاته من صاحبكم وأشار إلى عمر، قام بالإصلاح في الدولة الإسلامية مترامية الأطراف خلال سنتين وبضعة أشهر حتى وزعت الصدقات فلم تجد من يأخذها، توفي مسموما عام ١٠١ هـ وهو لم يبلغ الأربعين من عمره.

(٢) هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، هو أحد شعراء الدولة الأموية، يعد زعيم المذهب الإباحي في التغزل في القرن الأول الهجري، ولد في الليلة التي توفي فيها عمر بن الخطاب عام ٢٣هـ / ٦٤٤م فسمي باسمه، هو من طبقة الشاعرين جرير والفرزدق، ويروى أن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك سأله: ما يمنعك من مدحنا؟ فقال: أنا لا أمدح إلا النساء، فكان معظم شعره في وصف النساء والتغزل بهن، وبرع في استعمال الأسلوب القصصي والحوار، وتميزت قصائده بالعذوبة والطابع الموسيقي حتى تغنى بشعره كبار الموسيقيين في عصره.

ألا ليت أنـي يـوم حانت منيتـي شممت الـذى ما بين عينيـك والفـم
وليـت طـهـورى كـان ريقك كـلـه وليـت حنوطـى مـن مشاشـك والدم
وياليـت سلـمـى فـى القبـو ضجيعتـي هنـالك أو فــي جنـة أو جـهـنم

فليتـه والله تمنى لقاءها فى الدنيا، ويعمل عملا صالحا، والله لا دخل علىّ أبدا، فمن بالباب غير من ذكرت؟

قلت: جميل بن معمر العذرى[1]، قال: هو الذى يقول:

ألا ليتنـا نحيا جـميعا وإن نمـت يوافي لـدى الموت ضريحـي ضريحـها
فـما أنا فى طـول الحيـاة براغب إذا قيـل قـد سـوى عليهـا صفيحـها
أظـل نـهـارى لا أراها ويلتقـي مع الليـل روحى فى المنام وروحهـا

أعزب به، فوالله لا دخل علىّ أبدا، فمن غير من ذكرت؟ قلت: كثير عزة[2] قال: هو الذى قال:

رهبـان مـدين والـذين عهـدتهم يـبكون مـن حـذر العـذاب قعودا
لـو يسمعـون كما سمعـت حديثهـا خـروا لِـعَـزَّةَ راكـعين سجـودا

أعـزب به، فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: الأحـوص الأنصارى[3] قال: أبعده الله ومحقه، أليس هو القائل، وقد أفسد على أهل المدينة جارية هرب بها:

اللـه بينـي وبـين سيـدها يفـرّ عنـي بـهـا وأتبـع

أعزب به، فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قلت : همام بن غالب الفرزدق[4]، قال: أليس هو القائل يفخر بالزنى:

---

(١) وجميل بن عبد الله بن معمر العذرى القضاعى، هو من شعراء العصر الأموى الكبار، افتتن ببثينة بنت حيان بن ثعلبة التي خطبها من أبيها فرده وزوجها لرجل آخر، فازداد هياما بها، وكان معظم شعره فيها حتى أطلق عليه جميل بثينة، فتناقل الناس أخبارهما.

(٢) هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود الخزاعى، من أشهر شعراء العصر الأموى، كان من المدينة لكن أكثر إقامته كانت بمصر، اشتهر بحبه لعزة بنت جميل بن حفص الكنانية فكنى بها، وقال فيها الكثير من القصائد، توفى بالحجاز هو وعكرمة مولى ابن عباس فى نفس اليوم فقيل: مات اليوم أفقه الناس وأشعر الناس.

(٣) هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن ثابت الأنصارى، من شعراء العصر الأموى، لقب بالأحوص لضيق فى عينيه، من طبقة جميل بن معمر ونصيب، وعاصر جرير والفرزدق، كان من سكان المدينة، اشتهر بشعر الهجاء، توفى بدمشق عام ١٠٥هـ/٧٢٣م.

(٤) هو بن غالب بن صعصعة التميمى وكنيته أبو فراس، ولد بالبصرة عام ٣٨هـ/٦٥٨م، من أعظم شعراء العصر الأموى، سمى بالفرزدق ومعناها الرغيف لضخامة وتجهم وجهه، هو من شعراء الطبقة الأولى اشتهر بالهجاء والمدح والوصف، تنقل بين الأمراء والولاة يمدحهم ثم يهجوهم ثم يمدحهم، ترك بصمات واضحة فى أسلوب الشعر العربي حتى قال عنه أهل اللغة: لولا الفرزدق لذهب ثلث العربية، توفى عام ١١٠هـ/٧٢٨م.

هما دلتاني من ثمانين قامة   كما انقض باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتا   أخى يرجى أم قتيل نحاذره
وأصبحت فى القوم الجلوس وأصبحت   مغلقة دونى عليها دساكره
فقلت ارفعا الأسباب لا تشعروا بنا   ووليت فى أعقاب ليل أبادره

أعزب به، فوالله لا دخل على أبدا. فمن بالباب غير من ذكرت؟
قلت: الأخطل التغلبى(١). قال: أليس هو القائل:

فلست بصائم رمضان عمرى   ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بزاجر عنسا بكورا   إلى بطحاء مكة للنجاح
ولست بقائم كالعير يدعو   قبيل الصبح حى على الفلاح
لكنى سأشربها شمولا   وأسجد عند منبلج الصباح

أعزب به فوالله لا وطئ لى بساطا أبدا وهو كافر. فمن بالباب غير من ذكرت؟
قلت: جرير بن الخطفى(٢). قال أليس هو القائل:

لولا مراقبة العيون أريتنا   مقل المها وسوالف الآرام
هل ينهينك أن قتلن مرقشا   أو ما فعلن بعروة بن حزام
ذم المنازل بعد منزلة اللوى   والعيش بعد أولئك الأقوام
طرقتك صائرة وليس ذا   حين الزيارة فارجعى بسلام

فإن كان ولابد فهذا، فأذن له. فخرجت إليه فقلت: إدخل أبا حزرة فدخل وهو يقول:

إن الذى بعث النبى محمدا   جعل الخلافة فى إمام عادل
وسع الخلائق عدله ووفاؤه   لابن السبيل وللفقير العائل
إنى لأرجو منك خيرا عاجلا   والنفس مولعة بحبى العاجل

فلما مثل بين يديه قال: اتق الله يا جرير ولا تقل إلا حقا. فأنشأ يقول:

كم باليمامة من شعثاء أرملة   ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر

---

(١) هو غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة التغلبى ويكنى أبو مالك. ولد عام ١٩هـ/٦٤٠م. هو أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر أهل عصرهم: جرير والفرزدق والأخطل. أكثر فى مدح خلفاء بنى أمية. كان شاعر البلاط الرسمى فى عهد عبد الملك بن مروان.

(٢) هو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفى التميمى، ولد عام ٣٣هـ/٦٥٣م. هو أعظم شعراء العصر الأموى. نشأ باليمامة وتعلم الشعر مبكرا على لسان جده حذيفة بن بدر. أفنى عمره فى مصارعة الشعراء وهجائهم حتى قيل إنه هزم ثمانين شاعرا لم يثبت منهم إلا الأخطل والفرزدق. توفى عام ١٣٣هـ/٧٣٢م.

ممن يعدك تكفى فقد والده ... كالفرخ فى العش لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به ... خبلا من الجن أو مسا من البشر
خليفة الله ماذا تأمرن بنا ... لنا إليكم ولا فى دار منتظر
ما زلت بعدك فى هم يؤرقنى ... ولا يعود لنا باد على حضر
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة إذ كانت له قدرا ... كما أتى ربه موسى على قدر
هذى الأرامل قد قضيت حاجتها ... فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر

فقال عمر: يا جرير والله وليت هذا الأمر ولا أملك إلا ثلثمائة، فمائة أخذها عبد الله، ومائة أخذتها أم عبد الله، يا غلام أعطه المائة الباقية، فقال: والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال إلى كسبته ثم خرج، فقالوا له: ما وراءك؟ قال: ما يسوؤكم، خرجت من عند أمير المؤمنين يعطى الفقراء ويمنع الشعراء، وإنى عنه لراض. ثم أنشأ يقول:

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه ... وقد كان شيطانى من الجن راقيا

من كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسى.

□□□

من جود عبيد الله بن العباس

أجود أهل الإسلام أحد عشر رجلا فى عصر واحد، لم يكن قبلهم ولا بعدهم مثلهم، كان من أجودهم عبيد الله بن العباس[1]، ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان أول من فطر جيرانه، وأول من وضع الموائد على الطرق.

من جوده: أتاه رجلا وهو بفناء داره فقام بين يديه، فقال: يا ابن عباس إن لى عندك يدا وقد احتجت إليها. فصعد فيه بصره وصوبه فلم يعرفه ثم قال له: ما يدك عندنا؟ قال رأيتك واقفا بزمزم وغلامك يمتح لك من مائها والشمس قد صهرتك فظللتك بطرف كسائى حتى شربت، قال: إنى لأذكر ذلك وإنه يتردد بين خاطرى وفكري، ثم قال لقيمه: ما عندك؟، قال: مائتا دينار وعشرة آلاف درهم، قال: فادفعها إليه وما أراها تفى بحق يده عندنا. فقال له الرجل: والله لو لم يكن لإسماعيل ولد غيرك لكان فيه ما كفاه، فكيف وقد ولد سيد الأولين والآخرين محمدا صلى الله عليه وسلم، ثم شفعه بك وبأبيك.

ومن جوده: أن معاوية بن أبى سفيان أهدى إليه وهو عنده بالشام من هدايا النيروز حللا كثيرة ومسكا وآنية من ذهب وفضة ووجهها مع حاجبه، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها فقال: هل فى نفسك منها شيء؟ قال نعم والله إن فى نفسى منها ما كان فى نفس يعقوب من يوسف عليهما السلام، فضحك عبيد الله وقال: فشأنك بها فهى لك. قال: جعلت فداك، أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيجد على. قال: فاختمها بخاتمك وادفعها إلى الخازن. فإذا حان خروجها حملها إليك ليلا. فقال الحاجب: والله لهذه الحيلة فى الكرم أكثر من الكرم، ولودت أنى لا أموت حتى أراك مكانه – يعنى معاوية – فظن عبيد الله أنها مكيدة منه. فقال: دع عنك هذا الكلام فإنا قوم نفى بما وعدنا ولا ننقض ما أكدنا.

ومن جوده: إنه أتاه سائل وهو لا يعرفه فقال له: تصدق فإنى نبئت أن عبيد الله بن العباس أعطى سائلا ألف درهم واعتذر إليه، فقال له: وأين أنا من عبيد الله ؟ قال أين أنت منه فى الحسب أم كثرة المال؟ قال: فيهما، قال: أما الحسب فى الرجل فمروءته

(١) هو عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمى، ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وأخو عبد الله بن العباس وأصغر منه بسنة واحدة، قيل إنه له صحبة وسمع من النبى صلى الله عليه وسلم، ولى إمارة اليمن على عهد ابن عمه علىّ رضى الله عنه، كان كثير الفضل جوادا كريما، قيل أنه وصل رجل بمائة ألف، حدث عنه ابنه عبد الله وعطاء وابن سيرين وسليمان بن يسار وغيرهم، اختلف على سنة وفاته قيل ثمان وخمسين أو سبع وثمانين للهجرة.

وفعله وإذا شئت فعلت وإذا فعلت كنت حسيبا. فأعطاه ألفى درهم واعتذر له من ضيق الحال. فقال له السائل: إن لم تكن عبيد الله بن العباس فأنت خير منه، وإن كنت هو فأنت اليوم خير منك أمس فأعطاه ألفا أخرى. فقال السائل: هذه هزة كريم حسيب والله، لقد نقرت حبة قلبى فأفرغتها فى قلبك، فما أخطأت إلا باعتراض الشك بين جوانحى.

ومن جوده: أنه جاءه رجل من الأنصار فقال: يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. إنه ولد لى فى هذه الليلة مولود وإنى سميته باسمك تبركا. وإن أمه ماتت. فقال عبيد الله: بارك الله لك فى الهبة وأجزل لك الأجر على المصيبة. ثم دعا بوكيله فقال: انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع إليه مائتى دينار للنفقة على تربيته. ثم قال الأنصارى: لو سبقت حاتما (يعنى حاتم الطائى أجود العرب) بيوم واحد ما ذكرته العرب أبدا، ولكنه سبقك فصرت له تاليا، وأنا أشهد أن عفوك أكثر من مجهوده وكل كرمك أكثر من وابله.

من كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسى

□□□

امرأة أبى الأسود الدؤلى

كان أبو الأسود الدؤلى[1] من أكبر الناس عند معاوية بن أبى سفيان وأقربهم مجلسا، وكان لا ينطق إلا بعقل ولا يتكلم إلا بعد فهم.

فبينما هو ذات يوم جالسا وعنده وجوه قريش وأشراف العرب إذ أقبلت امرأة أبى الأسود الدؤلى حتى حاذت معاوية وقالت:

السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، إن الله جعلك خليفة فى البلاد ورقيبا على العباد، يستسقى بك المطر ويستثبت بك الشجر وتؤلف بك الأهواء ويأمن بك الخائف ويردع بك الجانف، فأنت الخليفة المصطفى والإمام المرتضى، فأسأل الله لك النعمة فى غير تغيير والعافية من غير تعذير، لقد ألجأنى إليك يا أمير المؤمنين أمر ضاق على فيه المنهج وتفاقم على فيه المخرج، لأمر كرهت عاره لما خشيت إظهاره، فلينصفنى أمير المؤمنين من الخصم، فإنى أعوذ بعقوته من العار الوبيل والأمر الجليل الذى يشتد على الحرائر ذوات البعول الأجائر.

فقال لها معاوية: ومن بعلك هذا الذى تصفين من أمره المنكر ومن فعله المشهر، قال فقالت: هو أبو الأسود الدؤلى، قال: فالتفت إليه، فقال: يا أبا الأسود ما تقول هذه المرأة؟

قال فقال أبو الأسود: هى تقول من الحق بعضا ولن يستطيع أحد عليها نقضا، أما ذكرت من طلاقها فهو حق وأنا مخبر أمير المؤمنين عنه بالصدق، والله يا أمير المؤمنين ما طلقتها عن ريبة ظهرت ولا لأى هفوة، ولكنى كرهت شمائلها فقطعت عنى حبائلها.

فقال معاوية: وأى شمائلها يا أبا الأسود كرهت، قال: يا أمير المؤمنين إنك مهيجها على بجواب عتيد ولسان شديد، فقال له معاوية: لا بد لك من محاورتها فاردد عليها قولها عند مراجعتها، فقال أبو الأسود: يا أمير المؤمنين إنها كثيرة الصخب دائمة الذرب مهينة للأهل مؤذية للبعل مسيئة إلى الجار مظهرة للعار، إن رأت خيرا كتمته وإن رأت شرا أذاعته.

---

(١) هو ظالم بن عمرو بن سفيان. ولد عام ١٦ قبل الهجرة. من سادات التابعين وأعيانهم. أغلب الظن أنه قد أسلم بعد فتح مكة ولم ير الرسول صلى الله عليه وسلم. يعتبر أول من وضع علم النحو. ووضع تشكيل المصحف، صحب الإمام على بن أبى طالب وشهد معه واقعة صفين. هو أول من وضع النقاط على الأحرف العربية. توفى عام ٦٩ هـ.

قال، فقالت: والله لولا مكان أمير المؤمنين وحضور من حضره من المسلمين لرددت عليك بوادر كلامك بنوافذ أقرع كل سهامك، وإن كان لا يجمل بالمرأة الحرة أن تشتم بعلا ولا أن تظهر لأحد جهلا.

فقال معاوية: عزمت عليك لما أجبته، قال فقالت: يا أمير المؤمنين ما علمته إلا سؤلا جهولا ملحا بخيلا إن قال فشر قائل وإن سكت فذو دغائل، ليث حين يأمن وثعلب حين يخاف شحيح حين يضاف، إن ذكر الجود انقمع لما يعرف من قصر شأنه ولؤم آبائه، ضيفه جائع وجاره ضائع لا يحفظ جارا ولا يحمى ذمارا ولا يدرك ثأرا، أكرم الناس عليه من أهانه وأهونهم عليه من أكرمه.

قال فقال معاوية: سبحان الله لما تأتى به هذه المرأة من السجع. قال، فقال أبو الأسود: أصلح الله أمير المؤمنين إنها مطلقة ومن أكثر كلاما من مطلقة، فقال لها معاوية: إذا كان رواحا فتعالى أفصل بينك وبينه بالقضاء، قال فلما كان الرواح جاءت ومعها ابنها قد احتضنته فلما رآها أبو الأسود قام إليها لينتزع ابنه منها، فقال له معاوية: يا أبا الأسود لا تعجل المرأة أن تنطق بحجتها، قال: يا أمير المؤمنين أنا أحق بحمل ابنى منها فقال له معاوية: يا أبا الأسود دعها تقل، فقال يا أمير المؤمنين حملته قبل أن تحمله ووضعته قبل أن تضعه قال فقالت: صدق والله يا أمير المؤمنين، حمله خفا وحملته ثقلا ووضعه بشهوة ووضعته كرها إن بطنى لوعاؤه وإن ثديى لسقاؤه وإن حجرى لفناؤه.

قال فقال معاوية: سبحان الله لما تأتين به فقال أبو الأسود أنها تقول الأبيات من الشعر فتجيدها، قال فقال معاوية: انها قد غلبتك فى الكلام فتكلف لها أبياتا لعلك تغلبها قال فأنشأ أبو الأسود يقول:

مرحبا بالتى تجور علينا ... ثم سهلا بالحامل المحمول
أغلقت بابها على وقالت ... إن خير النساء ذات البعول
شغلت نفسها على فراغا ... هل سمعتم بالفارغ المشغول

قال فأجابته وهى تقول:

ليس من قال بالصواب وبالحمق ... كمن جار عن منار السبيل
كان ثديى سقاءه حين يضحى ... ثم حجرى فناؤه بالأصيل
لست أبغى بواحد يا ابن حرب ... بدلا ما علمته والخليل

قال فأجابها معاوية:

ليس من غذاه حينا صغيرا ... وسقاه من ثديه بخذول
هى أولى به وأقرب رحما ... من أبيه بالوحى والتنزيل

قال فقضى لها معاوية عليه واحتملت ابنها وانصرفت.

من كتاب (بلاغات النساء) لابن طيفور.

رتن الهندى يرى رسول الله

قال الشيخ علاء الدين على بن المظفر الكندى، حدثنا القاضى الأجل العالم جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان بن إبراهيم الكاتب من لفظه بدمشق بدار السعادة سنة إحدى عشرة وسبعمائة قال: أخبرنا قاضى القضاة نور الدين أبو الحسن على بن أبى عبد الله محمد الحسين الحسينى الأثرى الحنفى من لفظه عام إحدى وسبعمائة بالقاهرة. قال: أخبرنى جدى الحسين بن محمد قال:

كنت فى زمن الصبا - وأنا ابن سبع عشرة سنة أو ثمان عشرة - قد سافرت مع عمى من خراسان إلى بلد الهند فى تجارة، فلما بلغنا أوائل بلاد الهند وصلنا إلى ضيعة من ضياع الهند. فعرج أهل القفل نحو الضيعة ونزلوا بها وضج أهل القافلة. فسألنا عن الخبر فقالوا: هذه ضيعة الشيخ رتن المعمر. فلما نزلنا الضيعة رأينا شجرة عظيمة تظل خلقا كثيرا، وتحتها جمع عظيم من أهل الضيعة. فتبادروا الكل نحو الشجرة ونحن معهم، فرأينا زنبيلا عظيما معلقا فى بعض أغصان الشجرة. فسألنا عن ذلك فقالوا: هذا الزنبيل فيه الشيخ رتن الذى رأى النبى صلى الله عليه وسلم وما يروى عنه، فتقدم شيخ من أهل الضيعة إلى الزنبيل، وكان ببكرة، فأنزله وإذا هو مملوء قطنا، والشيخ فى وسط القطن. ففتح رأس الزنبيل، وإذا بالشيخ فيه كالفرخ. فوضع فمه على أذنه وقال: يا جداه. هؤلاء قوم قدموا من خراسان، وفيهم شرفا من أولاد النبى صلى الله عليه وسلم، وقد سألوا أن تحدثهم كيف رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وماذا قال لك؛ فعندها تنفس الشيخ وتكلم بصوت كصوت النحل بالفارسية. ونحن نسمع ونفهم كلامه.

فقال: سافرت مع أبى وأنا شاب من هذه البلاد إلى الحجاز فى تجارة. فلما بلغنا بعض أودية مكة، وكان المطر قد ملأ الأودية بالسيل. فرأيت غلاما أسمر اللون حسن الكون رائع الجمال وهو يرعى إبلا فى تلك الأودية، وقد حال السيل بينه وبين إبله، وهو يخشى من خوض السيل لقوته. فعلمت حاله فأتيت إليه وحملته وخضت به السيل إلى عند إبله، فلما وضعته عند إبله نظر إلى وقال لى بالعربية: بارك الله فى عمرك. بارك الله فى عمرك. بارك الله فى عمرك. فتركته ومضيت إلى سبيلى. إلى أن دخلنا مكة وقضينا ما كنا أتينا له من أمر التجارة وعدنا إلى الوطن. فلما تطاولت المدة على ذلك كنا جلوسا فى فناء ضيعتنا هذه. وكانت ليلة البدر، فنظرنا إليه وقد انشق نصفين، فغرب نصف فى

المشرق ونصف فى المغرب، ساعة زمانية، وأظلم الليل، ثم طلع النصف من المشرق والنصف الآخر من المغرب، وسارا إلى أن التقيا فى وسط السماء كما كان أول مرة، فعجبنا من ذلك غاية العجب، ولم نعرف لذلك سببا، وسألنا الركبان عن خبر ذلك، فأخبرونا أن رجلا هاشميا ظهر بمكة، وادعى أنه رسول الله تعالى إلى كافة الخلق، وأن أهل مكة سألوه معجزة كمعجزة سائر الأنبياء، وأنهم اقترحوا عليه أن يأمر القمر فينشق فى السماء ويغرب نصفه فى الغرب ونصفه فى الشرق ثم يعود إلى ما كان عليه، ففعل ذلك بقدرة الله تعالى.

فلما سمعنا ذلك من السفار اشتقت إلى أن أراه، فتجهزت فى تجارة وسافرت إلى أن دخلت مكة، وسألت عن الرجل الموصوف فدلونى عليه، فأتيت إلى مجلسه واستأذنت عليه، فأذن لى فدخلت عليه، فوجدته جالسا فى صدر المجلس، والأنوار تتلألأ فى وجهه، وقد استنارت محاسنه وتغيرت صفاته التى كنت أعهدها فى السفرة الأولى، فلم أعرفه، فلما سلمت عليه رد على السلام وتبسم فى وجهى وقال: ادن منى، وكان بين يديه طبق فيه رطب، وحوله جماعة من أصحابه كالنجوم يعظمونه ويبجلونه، فقال: كل من هذه الرطب، فجلست وأكلت معه من الرطب، وناولنى بيده المباركة ست رطبات من سوى ما أكلت بيدى، ثم نظر إلى وتبسم وقال لى: ألم تعرفنى؟ فقلت: كأنى غير أنى ما أتحقق، فقال: ألم تحملنى فى عام كذا وجاوزت بى السيل حين حال السيل بينى وبين إبلى؟ قال: فعند ذلك عرفته بالعلامة وقلت: بلى والله يا صبيح الوجه، فقال: امدد إلى يدك، فمددت يدى اليمنى فصافحنى وقال لى: قل أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فقلت كذا كما علمنى، فسر بذلك وقال لى عند خروجى من عنده بارك الله فى عمرك، بارك الله فى عمرك، بارك الله فى عمرك، فودعته وأنا مستبشر بلقائه وبالإسلام، فاستجاب الله تعالى دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم وبارك فى عمرى بكل دعوة مائة سنة، وها عمرى اليوم نيف وستمائة سنة، وجميع من فى هذه الضيعة العظيمة أولاد أولادى وأولادهم، وفتح الله على وعليهم بكل خير وبكل نعمة ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

من كتاب (فوات الوفيات) لابن شاكر الكتبى

الشعبى رسول عبد الملك

وجه عبد الملك بن مروان[1]، عامرا الشعبى[2] إلى ملك الروم (جستنيان) فى بعض الأمر له، فاستكثر الشعبى (أى عظم شأنه عنده) فاستبقاه عنده أياما كثيرة. فلما ألح بأن يأذن له بالعودة إلى دمشق سأله الملك:

أمن أهل بيت الملك أنت؟

قال: لا. وإنما أنا رجل من جملة المسلمين.

فلما أذن له بالرجوع إلى عبد الملك حمله رقعة لطيفة وقال: إذا رجعت إلى صاحبك، فأبلغته جميع ما يحتاج إلى معرفته من ناحيتنا، فادفع إليه هذه الرقعة.

فلما صار الشعبى إلى عبد الملك ذكر ما احتاج إلى ذكره ونهض من عنده. فلما ذكر الرقعة، رجع فقال: يا أمير المؤمنين، إنه حملنى إليك رقعة نسيتها حتى خرجت، وكانت آخر ما حمّلنى فدفعها إليه ونهض.

فقرأها عبد الملك فأمر برده، فقال: أعلمت ما فى هذه الرقعة؟

قال: لا.

قال: فإنه قال فيها: "عجبت من العرب كيف ملكت عليهم غير هذا!". أفتدرى لم كتب إلى بمثل هذا؟

قال: لا.

فقال: حسدنى عليك. فأراد أن يغرينى بقتلك.

---

(١) هو عبد الملك بن مروان بن أمية. خامس الخلفاء الأمويين (٦٥-٨٦ هـ/٦٨٥-٧٠٥م). اتسعت الدولة فيعهده اتساعا كبيرا، كان عالما شاعرا أديبا خطيبا مفوها. كان قويا شديد البأس والشكيمة استطاع أن يقضى على مناوئه عبد الله بن الزبير بعد أن دانت له معظم أقطار الخلافة. أصدر أول عملة إسلامية كانت لها التأثير الكبير على النمو الاقتصادى للدولة الإسلامية وتحررها اقتصاديا. عرب كامل الدواوين والخراج، وصل بالدولة إلى أوج ازدهارها الحضارى فى كافة الجوانب. توفى عام ٨٦هـ.

(٢) هو من أئمة التابعين. ولد بالكوفة عام ١٦ هـ. وقيل ولد مع الحسن البصرى عام ٢١هـ، تنقل بين الأقطار لطلب العلم، روى عن عدد كبير من الصحابة منهم: على بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وأم المؤمنين عائشة، سمعه عبد الله بن عمر ذات مرة يقص على الناس أخبار المغازى فقال: لقد شهدت بعض ما يقصه بعينى وسمعته بأذنى ومع ذلك فهو أروى له منى، اتصل بخلفاء بنى أمية ونال مكانة كبيرة فى بلاطهم. توفى بالكوفة عام ١٠٣هـ. قال عنه الحسن البصرى: إن كان لقديم السن، كثير العلم. وإنه لمن الإسلام بمكان.

فقال الشعبى: لو كان رآك يا أمير المؤمنين ما استكثرنى.
فبلغ ذلك ملك الروم، ففكّر فى عبد الملك، فقال: لله أبوه، والله ما أردت إلا ذلك.
(أى ما أردت إلا قتل الشعبى).

من كتاب (الأذكياء) لابن الجوزى.

□□□

استبصار الخليفة المعتضد

حدثنى أبو على الحسين بن محمد الأنبارى الكاتب قال: سمعت دلوية الكاتب، يحكى عن صافى الحرمى الخادم، مولى المعتضد[1]، أنه قال: مشيت يوما بين يدى المعتضد. وهو يريد دور الحرم، فلما بلغ إلى باب دار أم المقتدر. وقف يتسمع ويطلع من خلل الستر، فإذا هو بالمقتدر، وله إذ ذاك خمس سنين أو نحوها، وهو جالس وحواليه مقدار عشر وصائف من أقرانه فى السن، وبين يديه طبق فضة، فيه عنقود عنب، فى وقت فيه العنب عزيز جدا، والصبى يأكل عنبة واحدة، ثم يطعم الجماعة عنبة عنبة، على الدور إليه (كلما يأتى الدور عليه) أكل واحدة مثلما أكلوا، حتى فنى العنقود، والمعتضد يتمزق غيظا.

قال: فرجع، ولم يدخل الدار، ورأيته مهموما فقلت: يا مولاى، ما سبب ما فعلت؟ وما قد بان عليك ؟ فقال: يا صافى، والله لولا النار والعار، لقتلت هذا الصبى اليوم، فإن فى قتله صلاحا للأمة. فقلت: يا مولاى، حاشاه، أى شىء عمل ؟ أعيذك بالله يا مولاى، إلعن إبليس.

فقال: ويحك، أنا أبصر بما أقوله، أنا رجل قد سست الأمور، وأصلحت الدنيا بعد فساد شديد، ولا بد من موتى، وأعلم أن الناس بعد موتى لا يختارون إلا ولدى، وأنهم سيجلسون ابن على - يعنى المكتفى - وما أظن عمره يطول، للعلة التى به، قال صافى: يعنى الخنازير التى كانت فى حلقه، فيتلف عن قريب، ولا يرى الناس إخراجها عن ولدى، ولا يجدون بعده منهم أكبر من جعفر، فيجلسونه وهو صبى، وله من الطبع فى السخاء، هذا الذى قد رأيت من أنه أطعم الصبيان مثلما أكل، وساوى بينه وبينهم، فى شىء عزيز فى العالم، والشح على مثله فى طباع الصبيان، فتحتوى عليه النساء، لقرب عهده بهن، فيقسم ما جمعته من الأموال، كما قسم العنب، ويبذر ارتفاع الدنيا ويخربها، فتضيع الثغور، وتنتشر الأمور وتخرج الخوارج، وتحدث الأسباب التى يكون فيها زوال الملك عن بنى العباس أصلا.

(١) هو الخليفة السادس عشر من خلفاء بنى العباس فى بغداد (٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠٢م) بويع بالخلافة بعد موت عمه المعتمد على الله، كان شجاعا مهيبا يبطش بالمفسدين، أشاع العدل والرخاء ورد المظالم، قاد الحروب بنفسه وأعاد الهيبة والنفوذ لبنى العباس بعد أن قضى نهائيا على نفوذ الأتراك داخل البلاط.

فقلت: يا مولاى بل يبقيك الله، حتى ينشأ فى حياتك، ويصير كهلا فى أيامك، ويتأدب بآدابك، ويتخلق بخلقك، ولا يكون هذا الذى ظننت.

فقال: احفظ عنى ما أقوله، فإنه كما قلت. قال: ومكث يومه مهموما. وضرب الدهر ضربه، ومات المعتضد، وولى المكتفى، فلم يطل عمره، ومات، وولى المقتدر. فكانت الصورة كما قال المعتضد بعينها. فكنت كلما وقفت على رأس المقتدر وهو يشرب، ورأيته قد سكر ودعا بالأموال، فأخرجت إليه، وحلت البدر، وجعل يفرقها على الجوارى والنساء، ويلعب بها، ويمحقها، ويهبها، ذكرت مولاى المعتضد، وبكيت.

قال: وقال صافى: كنت يوما واقفا على رأس المعتضد، فأراد أن يتطيب، فقال: هاتم فلانا الطيبى، - خادم يلى خزانة الطيب - فأحضر. فقال له: كم عندك من الغالية؟ فقال: نيف وثلاثون حبا صينيا، مما عمله عدة من الخلفاء. فقال: فأيها الطيب؟ قال: ما عمله الواثق. قال: أحضرنيه.

فأحضره حبا عظيما، يحمله خدم عدة، بدهق ومصقلة، ففتح، فإذا الغالية (دهن للتطيب) قد ابيضت من التعشيب، وجمدت من العتق، فى نهاية الذكاء. فأعجبت المعتضد، وأهوى بيده إلى حوالى عنق الحب، فأخذ من لطاخته شيئا يسيرا، من غير أن يشعث رأس الحب، وجعله فى لحيته، وقال: ما تسمح نفسى بتطريق التشعيث على هذا الحب، شيلوه، فرفع. ومضت الأيام، فجلس المكتفى للشرب يوما، وهو خليفة، وأنا قائم على رأسه، فطلب غالية، فاستدعى الخادم، وسأله عن الغوالى، فأخبره بمثل ما كان أخبر به أباه. فاستدعى غالية الواثق، فجاءه بالحب بعينه، ففتح، فاستطابه، وقال: أخرجوا منه قليلا، فأخرج منه مقدار ثلاثين أو أربعين مثقالا، فاستعمل منه فى الحال ما أراده، ودعا بعتيدة له، فجعل الباقى فيها، ليستعمله على الايام.

وولى المقتدر الخلافة، وجلس مع الجوارى يشرب يوما وكنت على رأسه، فأراد أن يتطيب، فاستدعى الخادم، وسأله، فأخبره بمثل ما أخبر به أباه وأخاه. فقال: هات الغوالى كلها، فأحضرت الحباب كلها، فجعل يخرج من كل حب، مائة مثقال، وخمسين، وأقل، وأكثر، فيشمه ويفرقه على من بحضرته، حتى انتهى إلى حب الواثق، فاستطابه. فقال: هاتم عتيدة. فجاءوه بعتيدة. وكانت عتيدة المكتفى بعينها، ورأى الحب ناقصا، والعتيدة فيها قدح الغالية، ما استعمل منه كثير شىء. فقال: ما السبب فى هذا ؟ فأخبرته بالخبر على شرحه، فأخذ يعجب من بخل الرجلين، ويضع منهما بذلك. ثم قال: فرقوا

الحب بأسره على الجوارى. فما زال يخرج منها أرطالا، وأنا أتمزق غيظا، وأذكر حديث العنب، وكلام مولاى المعتضد، إلى أن مضى قريب من نصف الحب. فقلت له: يا مولاى، إن الغالية أطيب الغوالى وأعتقها، ولا يعتاض منها. فلو تركت منها لنفسك، وفرقت الباقى من غيرها كان أولى. قال: وجرت دموعى لما ذكرته من كلام المعتضد. فاستحى مني، ورفع الحب. فما مضت إلا سنتين من خلافته، حتى فنيت تلك الغوالى. واحتاج إلى أن عجن غالية بمال عظيم.

من كتاب (نشوار المحاضرة) للتنوخى.

□□□

من آثار إنابة صلاح الدين

كان الملك الناصر[1] – قدس الله روحه – حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الإنابة إليه. ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه. وذلك أن الفرنج – خذلهم الله – كانوا نازلين ببيت نوبة وهو موضع قريب من القدس الشريف – حرسها الله تعالى – بينهما بعض مرحلة، وكان السلطان بالقدس وقد أقام يزكا (طلائع الجيش) على العدو محيطا به، وقد سير إليهم الجواسيس والمخبرين. فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته وتركيب القنابل عليه. واشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك. فاستحضر الأمراء وعرفهم ما قد دهم المسلمين من الشدة وشاورهم فى الإقامة بالقدس. فأتوا بمجاملة باطنها غير ظاهرها. وأصر الجميع على أن لا مصلحة فى إقامته بنفسه. فإنها مخاطرة بالإسلام وذكروا أنهم يقصدونهم ويخرج هو – رحمه الله – بطائفة من العسكر يكون حول العدو كما كان الحال بعكا. ويكون هو ومن معه بصدر منع ميرتهم (مددهم) أو التضييق عليهم ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدفع عنه. وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصر على أن يقيم بنفسه. علما منه أنه إن لم يقم ما يقيم أحد. فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم جاء من عندهم خبر أنهم لا يقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده. حتى يكون هو الحاكم عليهم والذى يأتمرون بأمره. فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الإقامة وضاق صدره وتقسم فكره واشتدت فكرته.

ولقد جلست فى خدمته فى تلك الليلة وكانت ليلة الجمعة من أول الليل إلى أن قارب الصبح، وكان الزمان شتاءً وليس معنا ثالث إلا الله تعالى، ونحن نقسم أقساما ونرتب على كل قسم بمقتضاه . حتى أخذنى الإشفاق عليه والخوف على مزاجه فإنه كان يغلب عليه اليبس (النحول). فشفعت إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة. فقال رحمه الله: لعلك جاءك النوم ثم نهض. فما وصلت إلى بيتى وأخذت لبعض شأنى إلا وأذن المؤذن

---

(١) هو صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولد بمدينة تكريت بالعراق عام ٥٣٢ هـ/١١٣٨م. استطاع إسقاط الدولة الفاطمية الشيعية فى مصر، وأسس على أنقاضها الدولة الأيوبية فى مصر والشام والتى دانت للخلافة العباسية فى بغداد، وكان أول ملوكها. حيث امتدت فترة حكمه ما بين عامى (٥٦٤–٥٨٩ هـ/١١٧٤–١١٩٣م)، استطاع الملك الناصر صلاح الدين أن يسقط مملكة بيت المقدس الصليبية وأن يفتح عاصمتها القدس، حيث سقطت عام ١١٨٧م أغلب مدن وحصون مملكة بيت المقدس بعد هزيمة الصليبيين فى موقعة حطين، وكان ذلك هو بداية جلاء الصليبيين نهائيا عن الشام فى العصر المملوكي. توفى إثر حمى أصابته فى ٢٧ صفر ٥٨٩ هـ/١١٩٣م. وعندما فتحوا خزانته الشخصية وجدوا أنه لم يكن فيها ما يكفى من المال لجنازته. ولم يخلف ملكا ولا دارا، إذ كان قد أنفق معظم ماله فى الصدقات.

وطلع الصبح وكنت أصلى معه الصبح في معظم الأوقات، فدخلت عليه وهو يمر الماء على أطرافه، فقال: ما أخذني النوم أصلا فقلت: قد علمت، فقال: من أين؟ فقلت: لأني ما نمت وما بقي وقت للنوم، ثم اشتغلنا بالصلاة وجلسنا على ما كنا عليه. فقلت له: قد وقع لي واقع وأظنه مفيدا إن شاء الله تعالى، فقال: وما هو؟ فقلت له: الإخلاد إلى الله تعالى والإنابة إليه والاعتماد في كشف الغمة عليه.

فقال: وكيف نصنع ؟ فقلت: اليوم الجمعة يغتسل المولى عند الرواح ويصلي على العادة بالأقصى، موضع مسرى النبي صلّى الله عليه وسلّم، ويقدم المولى التصدق بشيء خفية على يد من يثق به، ويصلي المولى ركعتين بين الآذان والإقامة ، ويدعو الله في سجوده فقد ورد فيه حديث صحيح وتقول في باطنك: إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك، ولم يبق إلا الإخلاد إليك، والإعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل. فإن الله أكرم من أن يخيب قصدك.

ففعل ذلك كله، وصليت إلى جانبه على العادة، وصلى الركعتين بين الآذان والإقامة، ورأيته ساجدا ودموعه تتقاطر على شيبته، ثم على سجادته ولا أسمع ما يقول، فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جرديك - وكان على اليزك - يخبر فيها أن الفرنج متخبطون، وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء، ووقفوا إلى قائم الظهيرة ثم عادوا إلى خيامهم، وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك.

ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا. فذهبت الفرنسيسية إلى أنه لابد لهم من محاصرة القدس، وذهب الأنكتار (ريتشارد قلب الأسد) وأتباعه إلى أنه لا يخاطر بدين النصرانية ويرميهم في الجبل مع عدم المياه. فإن السلطان كان قد أفسد جميع ما حول القدس من المياه، وأنهم خرجوا للمشورة، ومن عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل، وأنهم قد نصوا على عشرة أنفس منهم وحكموهم. فأي شيء أشاروا به لا يخالفونهم. ولما كانت بكرة الإثنين جاء المبشر يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرملة، فهذا ما شهدته من آثار استنابته وإخلاده إلى الله تعالى، رحمه الله.

من كتاب (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) لابن شداد

من ذكاء الخليفة المنصور

جلس المنصور[1] فى احدى قباب مدينته، فرأى رجلا ملهوفا مهموما يجول فى الطرقات. فأرسل من أتاه به. فسأله عن حاله. فأخبره الرجل أنه خرج فى تجارة فأفاده مالا وأنه رجع بالمال إلى منزله. فدفعه إلى أهله. فذكرت امرأته أن المال سرق من بيتها ولم تر نقبا ولا تسليقا.

فقال له المنصور: منذ كم تزوجتها؟ قال: منذ سنة. قال: أفبكر هى تزوجتها؟ قال: لا. قال: فلها ولد من سواك؟ قال: لا. قال: فشابة هى أم مسنة ؟ قال: بل حديثة. فدعا له المنصور بقارورة طيب كان يتخذه له حاد الرائحة، غريب النوع. فدفعها إليه وقال له: تطيب من هذا الطيب، فإنه يذهب همك.

فلما خرج الرجل من عند المنصور قال لأربعة من ثقاته: ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم، فمن مر بكم فشممتم منه رائحة هذا الطيب فليأتنى به. وخرج الرجل بالطيب، فدفعه إلى امرأته وقال لها: وهبه لى أمير المؤمنين. فلما شمته بعثت إلى رجل كانت تحبه، وقد كانت دفعت المال إليه، فقالت له: تطيب من هذا الطيب، فإن أمير المؤمنين وهبه لزوجى.

فتطيب منه الرجل ومر مجتازا ببعض أبواب المدينة. فشم الموكل بالباب رائحة الطيب منه. فأخذه فأتى به المنصور، فقال له المنصور: من أين استفدت هذا الطيب فإن رائحته غريبة معجبة؟ قال: اشتريته. قال: أخبرنا ممن اشتريته؟! فتلجلج الرجل وخلط كلامه.

فدعا المنصور صاحب شرطته، فقال له: خذ هذا الرجل إليك، فإن أحضر كذا وكذا من الدنانير فخله يذهب حيث شاء، وإن امتنع فاضربه ألف سوط من غير مؤامرة.

فلما خرج من عنده دعا صاحب شرطته. فقال: هول عليه وجرده ولا تقدمن بضربه حتى تؤامرنى. فخرج صاحب شرطته. فلما جرده وسجنه أذعن برد الدنانير وأحضرها

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب. كنيته أبو جعفر. الخليفة الثانى من خلفاء بنى العباس. ولد بقرية الحميمية جنوبى الأردن عام ٩٥هـ/٧١٤م. كان أبوه من نظم الدعوة لبنى العباس التى كان أبو جعفر أحد أقطابها. تولى الخلافة بعد موت أخيه الأصغر أبو العباس السفاح عام ١٣٦هـ/٧٥٤م. كان ذا علم وفقه وزهد وهيبة. لم يركن إلى اللهو واللعب ومنادمة الشعراء. بل اتصف بالحزم والشدة فكان المؤسس الفعلى للدولة العباسية. بنيت فى عهده دار السلام بغداد فى أربع سنوات ١٤٥-١٤٩هـ وأصبحت عاصمة للخلافة العباسية. توفى محرما أثناء حجه عام ١٥٨هـ/٧٧٥م.

بهيئتهـا، فأعلم المنصـور بذلك. فدعا صاحب الدنانير فقال لـه: رأيتك إن رددت عليك الدنانـير بهيئتها أتحكمنى فى امرأتك؟ قال: نعم. قال: فهذه دنانيرك. وقد طلقت المرأة عليك. وخبره خبرها.

من كتاب (الأذكياء) لابن الجوزى

□□□

موت الخليفة الواثق

حدثنى الحسين بن الحسن بن أحمد بن يحيى الواثقى، قرابة أبى، قال: حدثنى أبى، قال: حدثنى أبى أحمد، قال: كنت أخدم الواثق[1]. وأخدم تخته فى علته التى مات فيها. فكنت قائما بين يدى الواثق فى علته، أنا وجماعة من الأولياء والموالى، والخدم، إذ لحقته غشية، فما شككنا أنه قد مات. فقال بعضنا لبعض: تقدموا فاعرفوا خبره. فما جسر منهم أحد يتقدم. فتقدمت أنا، فلما صرت عند رأسه، وأردت أن أضع يدى على رأسه وأعتبر نفسه، لحقته إفاقة، ففتح عينيه، فكدت أن أموت فزعا من أن يرانى قد مشيت فى مجلسه إلى غير رتبتى. فتراجعت إلى خلف، فتعلقت قبيعة سيفى بعتبة المجلس، وعثرت به، فانكببت عليه، فاندق سيفى، وكاد أن يدخل فى لحمى، ويجرحنى.

فسلمت، وخرجت، واستدعيت سيفا ومنطقة أخرى، ولبستها وجئت حتى وقفت فى مرتبتى ساعة، فتلف الواثق تلفا لم تشك جماعتنا فيه، فتقدمت فشددت لحييه، وغمضته وسجيته، ووجهته إلى القبلة، وجاء الفراشون، وأخذوا ما تحته فى المجلس ليردوه إلى الخزانة، لأن جميعه مثبت عليهم، وترك وحده فى البيت. فقال لى ابن أبى دؤاد القاضى: إنا نريد أن نتشاغل بعقد البيعة، ولا بد أن يكون أحدنا يحفظ الميت إلى أن يدفن، فأحب أن تكون أنت ذلك الرجل.

وقد كنت من أخصهم به فى حياته، وذلك أنه اصطنعنى، واختصنى، حتى لقبنى الواثقى باسمه، فحزنت عليه حزنا شديدا، وقلت: دعونى وامضوا. فرددت باب المجلس، وجلست فى الصحن، عند الباب أحفظه، وكان المجلس فى بستان عظيم، أجربة، وهو بين بساتين. فحسست بعد ساعة فى البيت بحركة عظيمة أفزعتنى، فدخلت أنظر ما هى، فإذا بحرذون قد أقبل من جانب البستان، وقد جاء حتى استل عينى الواثق، فأكلهما. فقلت: لا إله إلا الله، هذه العين التى فتحها منذ ساعة، فاندق سيفى هيبة لها، صارت طعمة لدابة ضعيفة. قال: وجاءوا وغسلوه بعد ساعة، فسألنى ابن أبى دؤاد، عن سبب عينيه، فأخبرته. قال: والحرذون، دابة أكبر من اليربوع (الفأر الجبلى) قليلا.

من كتاب (نشوار المحاضرة) للتنوخى

---

(١) هو هارون الواثق بالله بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد. تاسع خلفاء بنى العباس فى بغداد، ولى الخلافة بعد وفاة أبيه المعتصم عام ٢٢٧ هـ/٨٤٢م. كان يسمى المأمون الصغير لأدبه وفضله. كان المأمون يجلسه وأبوه المعتصم واقف. قامت عدة ثورات فى عهده بسبب الجيوش التركية التى شكلها والده المعتصم فاستطاع إخمادها، توفى عام ٢٢٨ هـ/٨٤٣م.

من ثمرات التقوى

يذكر أن أدهم مر ذات يوم ببستاتين مدينة بخارى، وتوضأ من بعض الأنهار التى تتخللها، فإذا بتفاحة يحملها ماء النهر. فقال: هذه لا خطر لها. فأكلها، ثم وقع فى خاطره من ذلك وسواس، فعزم على أن يستحل من صاحب البستان، فقرع باب البستان فخرجت إليه جارية.

فقال: أدعى لى صاحب المنزل، فقالت: إنه لامرأة. فقال: استأذنى لى عليها، ففعلت، فأخبر المرأة بخبر التفاحة. فقالت له: إن هذا البستان نصفه لى، ونصفه للسلطان. والسلطان يومئذ ببلخ، وهى على مسيرة عشرة من بخارى وأحلته المرأة من نصفها، وذهب إلى بلخ فاعترض السلطان فى موكبه فأخبره الخبر، واستحله. فأمره أن يعود إليه من الغد.

وكان للسلطان بنت بارعة الجمال، قد خطبها أبناء الملوك فتمنعت وحببت إليها العبادة وحب الصالحين. وهى تحب أن تتزوج من ورع زاهد فى الدنيا. فلما عاد السلطان إلى منزله أخبر ابنته بخبر أدهم، وقال: ما رأيت أورع من هذا، يأتى من بخارى إلى بلخ لأجل نصف تفاحة. فرغبت فى تزوجه..

فلما أتاه من الغد، قال: لا أحلك إلا أن تتزوج بابنتى. فانقاد لذلك بعد استعصاء وتمنع، فتزوج منها، فلما دخل عليها وجدها متزينة، والبيت مزين بالفرش وسواها. فعمد إلى ناحية من البيت، وأقبل على صلاته حتى أصبح، ولم يزل كذلك سبع ليال.

وكان السلطان ما أحله قبل، فبعث إليه أن يحله، فقال: لا أحلك حتى يقع اجتماعك بزوجتك. فلما كان الليل واقعها ثم اغتسل، وقام إلى الصلاة فصاح صيحة وسجد فى مصلاه فوجد ميتا رحمه الله، وحملت منه. فولدت إبراهيم بن أدهم[1]. ولم يكن لجده ولد فأسند الملك إليه. وكان من تخليه عن الملك ما اشتهر. وعلى قبر إبراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء، وبها الطعام للصادر والوارد وخادمها إبراهيم الجمحى من كبار الصالحين.

من كتاب (تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لابن بطوطة.

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور بن زيد. ويقال التميمى، من بلخ، كان من أولاد الملوك لكنه زهد فى الملك، روى عن جماعة من التابعين كقتادة ومالك بن دينار والأعمش. اشتغل بالزهد عن الرواية. روى أنه ركب يوما البحر فهبت ريح واضطربت السفن وبكى الناس فقيل لبعضهم هذا إبراهيم بن أدهم لم لا تسأله أن يدعو الله. وكان قائما فى ناحية من السفينة ملفوف رأسه، فدنا إليه وقال: يا أبا إسحاق ما ترى ما فيه الناس، فرفع رأسه وقال: اللهم قد أريتنا قدرتك فأرنا رحمتك، فهدأت السفن. توفى عام ١٤٠هـ وهو مرابط مجاهم فى إحدى جزر البحر المتوسط.

فروخ وربيعة الرأى

عـن مشـايخ أهل المدينة أن فروخا أبـا عبد الرحمن بن ربيعة خـرج فى البعوث إلى خراسـان أيام بنى أميـة غازيا وربيعة الرأى[1] حمل فى بطن أمـه وخلف عند زوجته أم ربيعة ثلاثين ألف دينار، فقدم المدينة بعد سـبع وعشـرين سنة وهو راكب فرسا وفى يده رمح، فنزل ودفع الباب، فخرج ربيعة وقال: يا عدو الله أتهجم على منزلى. فقال فروخ: يا عدو الله أنت دخلت على حرمى فتواثبا وتلبب كل واحد منهما بصاحبه حتى اجتمع الجيران.

فبلغ مالك بن أنس والمشيخة فأتوا يعاينون ربيعة، فجعل ربيعة يقول: والله لا فارقتك إلا عند السلطان. وجعل فروخ يقول: والله لا فارقتك إلا بالسلطان وأنت مع امرأتى، وكثر الضجيج. فلما أبصروا مالك سـكنوا، فقال: أيها الشيخ لك سبعة فى غير هذه الدار، فقال الشـيخ: هى دارى وأنا فروخ، فسـمعت امرأته كلامه فخرجت وقالت: هذا زوجى وهذا ابنى الذى خلفه وأنا حامل به، فاعتنقا جميعا وبكيا. فدخل فروخ المنزل وقال: هذا ابنى؟ فقالت: نعم، قال: أخرجى المال الذى لى عندك وهذه أربعة آلاف دينار. قالت: قد دفنته وأنا أخرجه بعد أيام.

ثم خرج ربيعة إلى المسجد وجلس فى حلقته، فأتاه مالك والحسن بن زيد وابن أبى على اللهبى والمساحقى وأشراف مكة، وأحدق الناس به، فقالت امرأته لزوجها فروخ: اخرج فصل فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج فنظر إلى حلقة وافرة فأتاها فوقف فأفرجوا له قليلا، فنكس ربيعة رأسه يوهمه أنه لم يره وعليه دنية طويلة، فشك أبوه فيه، فقال: من هـذا الرجـل، فقالوا: هذا ربيعة بن أبى عبد الرحمن، فقال: فقد رفع الله ابنى، ورجع إلى منزله وقال لوالدته: لقد رأيت ولدك على حالة ما رأيت أحدا من أهل العلم والفقه عليها.

فقالـت أمه: فأيما أحب إليـك ثلاثون ألف دينار أو هذا الذى هو فيه، فقال: لا والله بل هذا، فقالت: فإنى انفقت المال كله عليه، قال: فوالله ما ضيعته.

من كتاب (صفة الصفوة) لابن الجوزى.

---

(١) هو أبو عثمان ربيعة بن أبى عبد الرحمن فروخ، مولى آل المنكدر التيميين المعروف بربيعة الرأي، فقيه أهل المدينة ومن سادات التابعين، أدرك جماعة من الصحابة وعنه أخذ مالك بن أنس وأبو حنيفة وسفيان الثورى والأوزاعى والليث بن سعد وغيرهم، قال معاذ بن معاذ: سمعت سوار بن عبد الله يقول: ما رأيت أحدا أعلم من ربيعة الرأى، قلت: ولا الحسن وابن سيرين، قال ولا الحسن وابن سيرين. وما كان بالمدينة رجل أسخى بما فى يديه من ربيعة الرأى، أنفق على إخوانه أربعين ألف درهم، توفى سنة ١٣٦هـ.

رجاء بن حيوة وأمانة الخلافة

عن رجاء بن حيوة[1] قال: إنى لواقف مع سليمان بن عبد الملك[2] فى جموع من الناس إذ رأيت رجلا يتجه نحونا وسط الزحام، كان حسن الصورة جليل الهيئة، فما زال يشق الصفوف وأنا ما أشك أنه يروم الخليفة حتى حاذانى، ووقف إلى جانبى ثم حيانى وقال: يا رجاء إنك ابتليت بهذا الرجل وأشار إلى الخليفة، وإن فى القرب منه الخير الكثير أو الشر الكثير، فاجعل قربك منه خيرا لك وله وللناس. واعلم يا رجاء أنه من كانت له منزلة من السلطان فرفع إليه حاجة إمرئ ضعيف لا يستطيع رفعها لقى الله جل وعز يوم يلقاه وقد ثبت قدميه للحساب، واذكر يا رجاء أن من كان فى حاجة أخيه المسلم كان الله فى حاجته، واعلم يا رجاء أن من أحب الأعمال إلى الله جل وعز إدخال الفرح على قلب إمرئ مسلم.

وفيما كنت أتأمل كلامه وأترقب أن يزيدنى منه نادى الخليفة قائلا: أين رجاء بن حيوة؟ فانعطفت نحوه وقلت: هاأناذا يا أمير المؤمنين. فسألنى عن شىء فما كدت أفرغ من جوابه حتى التفت إلى صاحبى فلم أجده فنفضت المكان عنه نفضا فلم أقع له على أثر بين الناس.

قال رجاء بن حيوة: لما كان أول يوم جمعة من شهر صفر سنة تسع وتسعين كنا مع أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك بدابق (مدينة بسوريا بها قبر الخليفة سليمان)، وكان قد أرسل جيشا كبيرا إلى القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك ومعه ابنه داود وطائفة كبيرة من آل بيته. وقد آلى على ألا يبرح مرج دابق حتى يفتح الله عليه القسطنطينية أو يموت.

---

(١) هو أبو المقدام رجاء بن حيوة بن جرول الكندى، كان من علماء التابعين، ولد بفلسطين أواخر عهد عثمان بن عفان، أخذ عن طائفة من الصحابة من أمثال: أبى سعيد الخدرى وأبى الدرداء وعبادة بن الصامت ومعاوية بن أبى سفيان وعبد الله بن عمرو بن العاص، عمل وزيرا لخلفاء بنى أمية ابتداء من عبد الملك بن مروان وانتهاء بعمر بن عبد العزيز، توفى عام ١١٢هـ.

(٢) هو سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، سابع الخلفاء الأمويين (٩٦-٩٩ هـ/٧١٥-٧١٧م)، كانت فترة حكمه تتسم بالعدل والإصلاح حيث اتخذ عمر بن عبد العزيز مستشاره ووزيره الأول وأطاعه فى نصحه وإرشاده، قال عنه الحسن البصرى: رحم الله سليمان افتتح خلافته بإقامة الصلاة على أوقاتها واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز، فتحت فى عهده جرجان وطبرستان، جهز أكبر جيش إسلامى لحصار القسطنطينية وعزم ألا يعود حتى تفتح أو يموت فكادت أن تسقط بعد حصار دام سنة، إلا أنه مات قبل أن تسقط مرابطا فى دابق شمال حلب بالشام عام ٩٩هـ.

فلما اقترب موعد صلاة الجمعة توضأ الخليفة فأحسن الوضوء ثم لبس حلة خضراء واعتم بعمامة خضراء ونظر فى المرآة نظرة معجب بنفسه مزهو بشبابه. وكان فى نحو الأربعين من عمره. ثم خرج ليصلى بالناس الجمعة فلم يرجع من المسجد إلا وهو موعوك. ثم أخذ يثقل عليه المرض يوما بعد يوم. وقد سألنى أن أظل قريبا منه. فدخلت عليه ذات مرة فوجدته يكتب كتابا. فقلت: ما تصنع يا أمير المؤمنين. فقال: أكتب كتابا أعهد به إلى ابنى أيوب. فقلت: يا أمير المؤمنين إن مما يحفظ الخليفة فى قبره. ويبرئ ذمته عند ربه أن يستخلف على الناس الرجل الصالح. وإن ابنك أيوب غلام لم يبلغ الحلم بعد. ولم يتبين لك صلاحه من طلاحه. فتراجع وقال: إنه كتاب كتبته وأنا أريد أن أستخير الله فيه. ولم أعزم عليه. ثم مزق الكتاب. ومكث بعد ذلك يوما أو يومين ثم دعانى وقال: ما رأيك فى ولدى داود يا أبا المقدام؟ فقلت: هو غائب مع جيوش المسلمين فى القسطنطينية. وأنت لا تدرى الآن أحى هو أم ميت ؟ فقال: فمن ترى إذن يا رجاء؟ فقلت: الرأى لك يا أمير المؤمنين. وكنت أريد أن أنظر فيمن يذكرهم لكى أستبعدهم واحدا واحدا حتى أصل إلى عمر بن عبد العزيز. فقال: كيف ترى عمر بن عبد العزيز ؟ فقلت: ما علمته والله إلا فاضلا. كاملا عاقلا دينا. فقال: صدقت إنه والله لكذلك. ولكننى إن وليته أغفلت أولاد عبد الملك. لتكونن فتنة ولا يتركونه يلى عليهم أبدا. فقلت: أشرك معه واحدا منهم واجعله بعده، فقال: أصبت فإن ذلك مما يسكنهم ويجعلهم يرضونه، ثم أخذ الكتاب وكتب بيده:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز. إنى وليته الخلافة من بعدى وجعلتها من بعده ليزيد بن عبد الملك[1]. فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع الطامعون فيكم.

ثم ختم الكتاب وناولنى إياه. ثم أرسل إلى كعب بن حامز صاحب الشرطة وقال له: أدع آل بيتى فليجتمعوا وأعلمهم أن الكتاب الذى فى يد رجاء بن حيوة هو كتابى. ومرهم بأن يبايعوا لمن فيه. قال رجاء: فلما اجتمعوا قلت لهم: هذا كتاب أمير المؤمنين قد عهد فيه للخليفة من بعده. وقد أمرنى أن آخذ منكم البيعة لمن ولاه فقالوا: سمعا لأمير المؤمنين وطاعة لخليفته من بعده. وطلبوا أن أستأذن لهم على أمير المؤمنين للسلام عليه. فقلت:

---

(١) هو يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم. تاسع الخلفاء الأمويين (١٠١- ١٠٥هـ/٧٢٠-٧٢٤م)، ولى بدمشق بعد وفاة عمر بن عبد العزيز عام ١٠١هـ وهو ابن تسع وعشرين عاما. كان عادلا. انتهج نهج سلفه فى الفتوحات والغزوات. خرج عليه يزيد بن المهلب فوجه إليه مسلمة بن عبد الملك فهزمه وقتله. قيل أنه مات عشقا بعد موت جاريته المعشوقة (حبابة) عام ١٠٥هـ

نعم. فلما دخلوا عليه قال لهم: إن هذا الكتاب الذى بيد رجاء بن حيوة هو كتابى، وفيه عهدى للخليفة من بعدى فاسمعوا وأطيعوا لمن وليت، وبايعوا لمن سميت فى هذا الكتاب. فطفقوا يبايعون رجلا رجلا. ثم خرجت بالكتاب مختوما لا يعلم أحد من الخلق ما فيه غيرى وغير أمير المؤمنين.

فلما تفرق الناس جاءنى عمر بن عبد العزيز فقال: يا أبا المقدام إن أمير المؤمنين رجل حسن الظن بى. وكان يوليني من كريم بره وصافى وداده الشيء الكثير، وأنا أخشى أن يكون أسند إلى من هذا الأمر شيئا. فأنشدك الله وأسألك بحرمتى ومودتى أن تعلمنى إن كان فى كتاب أمير المؤمنين شيء يخصنى حتى أستعفيه من ذلك قبل فوات الفرصة. فقلت له: لا والله ما أنا بمخبرك حرفا واحدا مما سألت عنه. فتولى عنى وهو غضبان. ثم ما لبث أن جاءنى هشام بن عبد الملك[1] وقال: يا أبا المقدام إن لى عندك حرمة ومودة قديمة وإن لك عندى شكرا جزيلا. فأعلمنى بما فى كتاب أمير المؤمنين، فإن كان هذا الأمر إلى سكت وإن كان لغيرى تكلمت. فليس مثلى من ينحى عن هذا الأمر، ولك عهد الله ألا أذكر اسمك أبدا. فقلت له: لا والله لا أخبرك بحرف واحد مما أسر به إلى أمير المؤمنين، فانصرف وهو يضرب كفا بكف ويقول: لمن يكون هذا الأمر إذا نحيت عنه؟ أتخرج الخلافة من بنى عبد الملك ؟ والله إنى لعين (سيد) أولاد عبد الملك.

ثم دخلت على سليمان بن عبد الملك فإذا هو يجود بروحه. فجعلت إذا أخذته سكره من سكرات الموت أحرفه نحو القبلة، فكان يقول لى وهو يشهق: لم يأن ذلك بعد يا رجاء. حتى فعلت ذلك مرتين، فلما كانت الثالثة قال: الآن يا رجاء، إن كنت تريد أن تفعل شيئا فافعله. أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فحرفته نحو القبلة فما لبث أن أسلم روحه.

عند ذلك أغمضت عينيه. وسجيته بقطيفة خضراء، وأغلقت الباب عليه وخرجت فأرسلت إلى زوجته تسألنى عنه، وتطلب أن تنظر إليه. فشققت عنه الباب وقلت لرسولها: انظر إليه لقد نام الساعة بعد سهر طويل فدعوه. فرجع فأخبرها فقبلت ذلك. وأيقنت أنه

---

(١) هو هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، عاشر خلفاء بنى أمية (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤-٧٤٣م). بلغت الدولة الأموية فى عهده ذروة قوتها واتساعها، وصلت فى عهده الجيوش الإسلامية إلى بواتيه جنوبى فرنسا حيث وقعت معركة بلاط الشهداء بقيادة عبد الرحمن الغافقى عام ١١٤هـ. قامت فى عهده عدة ثورات منها خروج زيد بن على بن الحسين، وثورة البربر بالمغرب، وثورة الخوارج وفتن واضطرابات فيما وراء النهر، لكنه قضى عليها جميعا بدهائه وقوته، وصلت الدولة الإسلامية فى عهده إلى أقصى اتساع لها فى التاريخ كدولة موحدة من الصين شرقا حتى جنوب فرنسا والأندلس والأطلسى غربا. توفى عام ١٢٥هـ

نائم، ثم أحكم إغلاق الباب، وأجلست عنده حارسا أثق به، وأوصيته ألا يتزحزح عن مكانه حتى أعود، وألا يدخل على الخليفة أحدا أبدا، كائنا من كان، ومضيت فلقيني الناس وقالوا: كيف أمير المؤمنين ؟

فقلت: لم يكن منذ مرض أسكن منه الآن ولا أهدأ، فقالوا: الحمد لله. ثم أرسلت إلى كعب بن حامز صاحب الشرطة، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين جميعا في مسجد دابق. فقلت: بايعوا لمن في كتاب أمير المؤمنين، فقالوا: قد بايعنا مرة ونبايع أخرى، فقلت: هذا أمير المؤمنين، بايعوا على ما أمر به، ولمن سمى في هذا الكتاب المختوم. فبايعوا رجلا رجلا.

فلما رأيت أني قد أحكمت الأمر قلت: إن صاحبكم قد مات، وإنا لله وإنا إليه راجعون. وقرأت عليهم الكتاب، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز، نادى هشام بن عبد الملك: لا نبايعه أبدا. فقلت: إذن والله أضرب عنقك، قم فبايع. فقام يجر رجليه، فلما انتهى إلى عمر قال: إنا لله وإنا إليه راجعون (يسترجع لمصير الخلافةإلى عمر دونه)، وقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون (يسترجع لمصير الخلافة إليه).

من كتاب (تاريخ الطبري) لابن جرير الطبري.

❑❑❑